الصحافة واثـرها في تطور فن المقالة

الدكتور منير بكر التكريتي
استاذ الصحافة والادب
المساعد بكلية الآداب
جامعة بغداد

يرتبط فن المقالة في ادبنا الحديث بتاريخ الصحافة في الشرق العربي ، وهو فن جديد في اساليبه وطرق تعبيره ، نشأ في ادبنا الحديث بتأثير اتصالنا العقلي باداب الغرب •

والمعروف ان اول ظهور للمقالة بالصورة التي عرفت بها ، كان في عام (١٨٥٠ م) حينما ظهرت مجموعة مقالات للكاتب الفرنسي « مونتين » ومما يروى عنه انه رأى في مدينة « بارلي دك » بفرنسا صورة رسمها لنفسه « رينيه » ملك صقلية فسأل « مونتين » نفسه قائلا : « لماذا لا يباح لكل انسان ان يصور نفسه بالقلم على هذا النمط كما صور ملك صقلية نفسه بالالوان والخطوط ؟ » • وقد استطاع « مونتين » ان يرينا في مقالاته جوانب شتى من شخصيته ، واسلوب حياته •

والمقالة في الادب العربي ليست من فنون الادب المجهولة، اذ كانت تعرف باسم « الرسالة » وليس المقصود بها الرسائل الديوانية والرسائل التي تتبادل بين الكتاب ، وانما المقصود بها الرسالة التي كانت تدور حول موضوع يختاره الكاتب ، مثل رسائل الجاحظ ، وابن المقفع ، واضرابهما من كتاب العرب،لكن المقالة الحديثة في الادب العربي مختلفة بطبيعة الحال عما كان يعرف قديما بالرسالة ، فقد تأثر كتاب المقالة الحديثة بالاتجاهات الادبية الغربية ، وفي الحق ان تأريخ المقالة العربية الحديثة متصل اتصالا وثيقا بتاريخ الصحافة في

الشرق العربي ، وبتعبير ادق ، منذ غزو نابليون الشرق ، ووجود المطابع واصدار الصحف ، جعل ظهور المقالة مقرونا ومعاصرا لظهور الصحافة[1] . وقد ظلت الصحف فترة طويلة محتفظة بطريقة المقال الافتتاحي وكان يدور في الاعم الاغلب حول الموقف السياسي وما يعرض فيه من التعليقات ، ويغلب عليه طابع الفن والادب والعلم والخبرة فأصبح المقال الادبي وكأنه موسوعة في الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي بوجه عام لهذا ظهر المقال الصحافي .

وقد يتبادر الى الذهن ان لا فرق بينهما لكن الامر ليس كذلك ،

فالفرق كبير بين المقالة الادبية ، والمقالة الصحفية ، فالمقالة الادبية تعتمد على الزركشة في الالفاظ والغوص على المعاني والبعد في الخيال بينما المقالة الصحفية تخلو من جميع هذه الزينة لانها تحاول افهام القارىء بايسر الطرق واسهل الالفاظ ، واوضح المعاني ، لان الصحافي يحاول ان يصف المجتمع الذي يحيا بين جنباته ، يصف عواطفه واحاسيسه لانه يبغي منفعة المجتمع ، فلا بد له ، والحالة هذه ، من ان يراعي جمال الادب الخالص في تعبيره لانه يعبر بلغة الحياة اليومية بكل ما في هذه اللغة من الفة وبساطة ووضوح ، واياس وحيوية ، ومن هنا كان الصحافي اقدر الناس على افهام الجماهير من الاديب[2] على انه من الجائز ان يصطنع الصحافي لغة الادب الخالص احيانا ، ولكن ليس له ان يسرف اسراف الاديب في ذلك ، فاذا جاز للاديب ان يستخدم السجع ، والجناس ، والتشبيه والاستعارة وما انيها فانه لا يجوز للصحافي ان يفعل فعله الا في القليل النادر فالفاظ الديمقراطية والستراتيجية والاستقراطية والدكتاتورية والحرب الباردة ، والحرب النفسية ، والتكتيك السياسي كلها الفاظ احتضنتها الصحافة ، بينما نراها قليلة الترداد على ألسنة الأدباء بل تكاد تكون نادرة . فالاديب يختار الفاظا بعينها وهذا لا يتيسر للصحافي لان الحوادث هي التي تختار كل يوم الوانا جديدة تدعوه

---

(١) اديب مروة « الصحافة العربية نشأتها وتطورها » ص ٢٤ بيروت ١٩٦١

(٢) لمعرفة الفرق بين المقالة الادبية والصحفية راجع : د . عبداللطيف حمزة « مستقبل الصحافة » ، والدكتور منير بكر « الصحافة العراقية » .

الى ان يتجه اليها . يقول « عبدالقادر حمزة » في تقيد الصحافي وحرية الاديب : « يجب ان يكون الصحافي حاضر البديهة ، حاضر الجواب على كل ما يدعي وهو في كل ذلك لا يختار كما يفعل الاديب بل الحوادث هي التي تختار له كل يوم الوانا جديدة وتدعوه الى ان يتجه اليها وينتهي به الامر الى ان يتسع افق الادب والعلم لديه فيصبح وكأنه موسوعة »[٣]

ولقد استطاع الكتاب الاجادة في النوعين[٤] مثل العقاد وطه حسين والمازني ، وفهمي المدرس ، وابراهيم صالح شكر ، وطه الراوي ومحمد رضا الشبيبي ، والرصافي ، والزهاوي ويوسف رجيب ، وكانت وسائل التعبير لدى هؤلاء الادباء هي الشعر حينا والمقالة حينا آخر فهم اشبه بالفنانين ، قادوات الفنان الفرشة والريشة يصور بها على لوحته فهي قوالب للفن ، وكذلك للادباء قوالب هي، خلق قوالب جديدة وابداع اشكال جديدة. الواقع ان القدر الاكبر من ثروتنا الادبية نشأ في هذه الصحافة وعرف وجوده في صفحاتها ، إذ هي التي اعانت على ظهوره ، وشجعت على نموه ووهبته القدرة على التأثير بل لعلها هي التي كونته واعطته بعض صوره وملامحه[٥]. ومما لاشك فيه ،كذلك، ان الصحافة هي التي صنعت القصة والقصيدة والمقالة. لقد تطور الادب الحديث واستطاع ان يخلع عن نفسه رداء « الرومانسية » الخيالية وان يتخذ لنفسه رداء الواقعية ... واذا ذهبت تبحث عن الاسباب الرئيسة التي جعلت الادب الحديث يعدل عن الرومانسية ويصبو الى الواقعية لم تجد لذلك الا سببا واحدا ، هو ظهور الصحافة . هذه الصحافة كانت اشبه بمدرسة كبرى جذبت اليها الادباء ، فتدرب فيها هؤلاء تدريبا اكسبهم كثيرا من الخبرات الخاصة ، والتجارب النفسية ، والفكرية واللغوية التي غيرت من وجه الادب بمختلف فنونه من حيث الاسلوب ومن حيث الفكرة ، ومن

---

(٣) المصدر نفسه

(٤) راجع محمد عبدالمنعم الخفاجي « دراسات في الادب العربي الحديث » ص ٤٥٧ — ٤٧٠ .

(٥) د . شكري فيصل « الصحافة الادبية » ص ٥ القاهرة عام ١٩٦٠

حيث الموضوعات ، وحلت البساطة في التعبير محل الضخامة والجزالة ولم يقف الامر عند النثر بل تجاوز ذلك الى القصيدة اذ نلاحظ الالفاظ الشعرية اصبحت ادنى الى السهولة ، والقصيدة اضحت اشبه بمقالة مقفاة .

كما تحولت بعض الاغراض القديمة في الشعر بفعل هذه الصحافة الى أغراض جديدة فيها الكثير من الاختلاف عما كانت عليها ، واهمها المدح والهجاء . فلقد ابتعد الشعراء المعاصرون بهذين الغرضين عن كل ما يمت الى العامل الشخصي بصلة وأصبح الشاعر يعتمد على المشاركة الوجدانية في العقيدة والمبدأ او على الاعجاب او الاختلاف في وجهات النظر ازاء مواقف معينة . والمهم ان القصيدة في الصحافة نزلت الى مستوى الجماهير فاصبحت سهلة في لغتها ، بسيطة في الفاظها ، واضحة كل الوضوح في افكارها ، فلم يعد الشاعر يجد متسعا من الوقت لكي يتأنق في شعره ، لان سرعة الحوادث وتغيرها المستمر حرمت الشاعر من التأني والتأنق في الشكل والمضمون ، وبهذا اصبحت ، كما قلنا سابقا ، لا تختلف في لغتها واسلوبها وموضوعها عن المقال الصحافي وهي معاني نحس بها ونراها ، والفاظها من تلك التي نستعملها في حياتنا اليومية ، لا هي بالعامية ، ولا هي بالتي تستعصي على القارىء العادي ، لان الادب لم يعد وقفا على طبقة معينة دون اخرى ، فالتطورات الهائلة التي صاحبت النهضة في ميادين التعليم والفنون والسياسة والاقتصاد والاجتماع استوجبت معها ادبا جديدا يتسع لكل هذه التطورات ، وقد تحملت الصحافة عبء هذا العمل نظرا لشيوعها وانتشارها وسرعة تأثر الناس بها حتى غدا الادب ملائما لهذه الطبقات من القراء فنزل الى مستواهم وخاطبهم باللغة التي يفهمونها دون ان يفقد شيئا من فنيته لان ادباء الجيل كانوا من الموهوبين الذين لم ينزلوا الى مستوى الاسفاف والانحدار[٦] . حيث فرضت الصحافة على نفسها واجبا مهما نحو الادب والثقافة وشعرت بانها مسؤولة امام قرائها عن تزويدهم بالمعلومات سواء أكانت أدبية ام ثقافية إذ اتخذت بعض

---

(٦) راجع عناد الكبيسي « الادب في صحافة العراق » ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥ .

الصحف من صفحاتها معرضا عاما للادب ، فليس غريبا اذا قلنا ان أكثر انتاجنا الادبي قد عاش في احضان المجلات الادبية ، وظهر فيها ونوقش على صفحاتها وان هذه المجلات تكاد تكون الحافظة لهذا التراث ، فللمجـــلات اثر كبير في الناحية الفكرية حيث اتاحت لهذا الفكر فرصة الظهور وانها مكنت له من فرص النمو »[٧] .

وقد فعلت الصحافة هذا فتخرج فيها كثير من الادباء والصحافيين الذين كانوا يتمتعون بثقافة لغوية ادبية شاملة ويمتازون بشاعرية مرموقة من امثال الزهاوي والرصافي وخيري الهنداوي والشبيبين ، باقر ، ومحمد رضا ، وانها لحقيقة معروفة ان الادباء كانوا رسل الفكر المتحرر ، ورواد قومية متوثبة ، ومصابيح منيرة شقت دياجير الخمول والكسل العقلي، ففتحوا طريق المستقبل لنا ولاجيالنا ، وغذوا شعلة الوطنية التي ابى الله لها ان تنطفىء . ان مـــن يطيل النظر في ادب المقالة بانواعها المختلفة لهؤلاء الادباء يجدها كانت تسيرمع الاحـــداث لذلك طغى عليها الجانب السياسي بفعل الظروف التي كان يحياها العراق بخاصة والعالم العربي بعامة . كما كان الادباء رواد الصحافة الادبية اذ مثلوا دورا هاما في نهضتنا الادبية فهم الذين اعطوا لغتنا الحديثة التي نتكلم بها ونكمتب ، القوة والتطور من حيث السهولة والبساطة في التعبير وكثرة الكلمات المستحدثة المألوفة اذ وجد اولئك الكتاب في الصحافة مجالا لنشر آرائهم ، لهذا ارتبطت الصحافة في مستهل حياتنا الثقافية ارتباطا وثيقا باصحاب الاقـــلام من الادبـــاء ، حيث وجـــد هـــؤلاء المجـــال فسيحا امـــامهـــم ليطوروا الكتابة النثرية التي توارثوها كصورة للعمل الادبي عند العـــرب القدماء لتلائم مجال النشر اليومي او الاسبوعي الجديد ، ثم استطاع هؤلاء الادباء ، بحكم ارتباطهم بالحياة الجديدة من حولهم ، ان يطوروا هذا الشكل الادبي ــ المقال ــ ليصبح له سمات تتفق وروح العصر كما يتفق مع تطور الفنون الادبية . لقد فرضت الصحافة تقاليد معينة على المقال من حيث اللغة

---

(٧) من اراد التوسع في هذا الباب فليراجع « مستقبل الصحافة » للدكتور عبداللطيف حمزة ط ١ ، دار الفكر العربي ١٩٦١ .

ومن حيث الموضوع ومن حيث الاسلوب ، وان تطور الاسلوب انما جاء نتيجة طبيعية لاتساع افق الحياة ففتحت الصحافة اللغة على هذه الحيـــاة وجعلتها وسيلة مرنة طيعة للتعبير عن هذه الحاجات واهتمت بالبســـاطة والوضوح وبالجملة النافذة التي تعطي معنى مباشرا ، بحيث يستطيع ان يفهمها اولئك الذين لم تتح لهم الفرصة لان يتعمقوا في دراساتهم ، فكان اسلوبهم يستمد بلاغته من الحياة الواقعية ومن الاحساس المشترك الذي خلقته الصحافة . فهناك اسلوب العرض المنطقي الذي يراد به اقناع القارىء لفكرة معينة ، وهناك الاسلوب الوجداني الذي يترك الكاتب لنفسه حرية التعبير عما يجيش في نفسه من افكار لان الصحافة فرضت عليه الكتابة باســـلوب مبسط وواقعي ليكون قريبا الى مفهوم العامة والخاصة ، بعيدا كل البعد عن الخيال والمغالاة لذا عد بعضهم الصحافة « مدرسة للشعب الذي لم تتهيأ له فرص متساوية ليثقف ويتعلم[٨] . ان مواقف الصحافة من الادب بعـامة والمقالة بخاصة قامت في مراحلها الاولى على اكتاف الادباء في مجتمع يعمه الخمول والجهل فتحملوا الكثير من المتاعب في نشر آرائهم واظهـــار مبادئهم الجديدة فكانوا بحق جسرا الى النهضة الحديثة[٩] . وكانوا ، بجدارة ، رواد قوميتنا العربية . لقد شعروا بان مهمتهم ، كادباء وصحافيين ان يفهموا قراءهم بان انتصار القضية العربية ، هو جزء من انتصار القيم التي يحيون من اجلها ويدافعون عنها ، ولقد آمنوا ايمانا راسخا بان على الكاتب ان يشعر شعورا تلقائيا صادقا انه مدعو الى ان يجـدد مواهبه وطاقـاته الابداعية لصالح قضايا امته التي يتوقف على انتصارها كرامته البشريـــة والانسانية ومن ثم قيمته الادبية والصحافية . لقد اكدت الثورات المتعاقبة في الوطن العربي على ان مهمة الاديب هي في اذكاء الروح القومية وحماية التراث كما تؤكد مهمته في نصرة القيم الانسانية التي يقوم عليها تاريخه ويتميز بها .

---

(٨) لتفصيل ذلك راجع : اديب مروة « الصحافة العربية نشأتها وتطورها » ص ٢٤ – ٣٠ .

(٩) راجع الدكتور منير بكر « الصحافة العراقية » فصل «الادب والصحافة»

فما اكثر ما تحدث الادباء والصحفيون عن شؤوننا المختلفة وقضايانا المصيرية بمقالاتهم الصحافية ! تحدثوا عن الشؤون السياسية وكتبوا عن الامور الاجتماعية وناقشوا القضايا الادبية واللغوية ، وما أكثر ما اعلنوا عن اعتزازهم بها واعتدادهم بالتراث ! ويقيننا انها هي أساس وحدتنا وهي العروة التي تجمع الشعب العربي على اختلاف عقائده وتباعد اوطانه[١٠] .

وهنا لابد لنا من الاعتراف بان حاضرنا الصحافي ليس منقطعا عن ماضينا، بل هو موصول به كما هو موصول بكل احتمالات المستقبل وآفاقه ، فليس هناك حاضر لا ماضي له، ولا مستقبل ، وبعبارة اخرى ليس ما نفكر به أو ننتجه في حاضرنا ما هو الا انتاج متطور لكل ما كان ابداعا ماضيا ، وعلى هذا الاساس نفهم التراث كجزء اصولي في نسيج فكرنا الحاضر ، وبمعنى ادق ان الفكر المعاصر هو الشكل المتطور للتراث ، وهذا يعني ان الاقسام التراثية غير القابلة للتطور ، ما هي الا وليدة حالة استثنائية عابرة في عصرها لا يمكن ان تكون داخلة في نسيج هذا الفكر المعاصر ، مادام ليس لها مكان في مسيرة التطور .

نحن نرفض النظرة المطلقة الى التراث ، ونعتمد النظرة النقدية القائمة على دراسة عناصره المختلفة لاستخلاص ماهو قادر منها على الاحتفاظ بعلاقة ما ، بينه ، وبين الحياة الحضارية في حركتها وتطورها ، وما هو فاقد لهذه القدرة ، لانه بالاصل فاقد تلك العلاقة ، ثم محاولة النفاذ العلمي الى المحتويات التقدمية الكامنة[١١] .

لقد شارك الكتاب الصحافيون في مقالاتهم الشعب بآلامه وافراحه لايمانهم بأن أي تصرف أو سلوك في المجتمع سواء أكان فرديا أم اجماعيا لابد له ان يرتبط بهدف، وان أية فكرة تطرح في هذا المجال لابد لها كذلك ان تتصل بالواقع الاجتماعي والسياسي وترتبط بالشعب وتطلعاته لان الشعب عنصر

---

(١٠) للاستزادة في هذا الباب يراجع « المباحث اللغوية في العراق » ص ٦٢ ـ ١٧٣ للدكتور مصطفى جواد .

(١١) قابل جريدة الثورة العراقية « مقال بعنوان « ادب » في ٢٦-٢-١٩٧٤ »

مكون للحالة الفاعلة والمتحركة لتحقيق ما يصبو اليه ، ومن دون شك ان الكتاب سعوا الى اثارة الشعور القومي والمطالبة بحق مغتصب وحرية مسلوبة ودعوا الى الثورة على الواقع الفاسد حيث انطلق الكتاب من هذه المنطلقات الثورية كان نجاحهم فيما كتبوا ، لان اعمالهم وكتاباتهم كانت مستندة الى قاعدة نظرية واقعية هي حرية النشر والكتابة وحرية الرأى فبرز عملهم الصحافي كنتيجة باهرة لكفاحهم الطويل وعبر مسيرتهم الحافلة ، فطوروا المقالة تطويرا هاما خلال الربع الاول من هذا القرن • حيث تعد هذه الفترة بما فيها من احداث من اهم فترات الصراع بين الاتجاه الغربي والاتجاه الشرقي في كل شيء • فصراعهم مع المحتلين من الناحية السياسية وصراعهم المرير مع التقاليد الغازية والبالية وانقسام الكتاب انفسهم بالنسبة للثقافة الغربية الوافدة حيث كان كل كاتب يتجه اتجاها معينا ف « علي يوسف » الكاتب المصري صاحب جريدة المؤيد مثلا في مقالاته السياسية يمثل عقل الامة ، يحلل ويشرح ، ويقرع الحجة بالحجة ، استمع اليه يرد على « روزفلت » حين قدم مصر قال : « وقد كلف الكولونيل روزفلت نفسه ان يحفظ مثلا عربيا وهو « ان الله مع الصابرين اذا صبروا » لينطق بها عربية ظانا انه بعد ذلك يتسنى له ان يصب الرصاص ذائبا في ادمغة المصريين فيجمد • ولكنه لم يكد ينطق بها حتى ضحك السامعون وانا في جملتهم • مصر محتلة بدولة اجنبية يعرف « الكولونيل » روزفلت انها قائمة على شؤونها قيام الوصي على قاصر غني ، فلا الوصي يريد ان يرفع يده عن ذلك القاصر وكل ما يملك ، ولا القاصر يستطيع ان يدرك منزلته الخصوصية[١٢] • اما « مصطفى كامل » صاحب اللواء فكان يمثل قلب الامة ، وعواطفها ومشاعرها وكان في مقالاته يلهب النفوس ويخز السياسيين الذين تنكروا للوطن والمواطنين وكان في كل خطبه ومقالاته السياسية يخاطب العقل وينفذ الى القلب ، استمع اليه يخاطب الساسة الانجليز قائلا :

---

(١٢) د. ماهر حسن فهمي « الأدب واحياة في المجتمع المصري المعاصر » ص ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ .

« ليقل المصريون للامة الانجليزية انه اذا كان ساستها قد نسوا او تناسوا عهودهم ، ووعودهم فاننا معاشر المصريين لم ننسها • ليقولوا بحرية وصراحة واستقلال كل ما يعتقدون به وما يشعرون حتى تعلم الامة كلها انهم احياء يناضلون عن حقوقهم ولا يقبلون المذلة والعار[١٣] • اما لطفي السيد صاحب «الجريدة» فكان يمثل الجانب العملي من الامة • فهو لا يدحض حججا ، ولا يخاطب قلوبا فذلك هو الجانب النظري من المشكلة ، اما الجانب العملي فهو الطريق امام من يريد ان يتخلص من المشكلة استمع اليه متحدثا ومتحديا : « يجب علينا ان نثبت ــ لا لغيرنا بل لانفسنا ــ اننا احرار متحللون من كل عقال يربطنا عن نيل الحرية • نحن اسرى السلطة السياسية ، اسرى السلطة المالية ، فاذا اعوزنا ان نسترد حريتنا السياسية فما الذي يمنعنا من العمل لاسترداد حريتنا المالية وهي لا يستهان بها[١٤] » •

فالمقال سواء أكان أدبيا أم اجتماعيا ، سياسيا أم اقتصاديا من الفنون الادبية الحديثة رافق ظهور الصحافة ومثل مرحلتها الاولى ويعد عنصرا اساسيا في نمائها ••• حقا ان لكتاب المقال الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اثرا كبيرا في نهضة النثر العربي الحديث فالشدياق والنديم ، ومحمد عبده وفهمي المدرس كانوا طليعة كتاب المقالة في ادبنا الحديث وقد تحررت هذه الجماعة من قيود الاساليب الموروثة ، واصبحت قادرة على انشاء المقال بلغة سليمة فالكاتب كان يتوخى بلاغة العبارة واختيار اللفظ وتوشيح الكلام بالاشعار في بعض الاحيان ، ولكنها على اية حال خطوة موفقة تعبر عن نهضة ووعي واضحين • فمستوى المقال الذي وصل اليه في اوائل القرن العشرين كان الفاظا مختارة ، بعيدا عن السجع المتكلف ، مصورا لامور العصر • ويعد عبدالله نديم قمة الوعي الاجتماعي يومذاك ، وان كان لا يمثل قمة الاسلوب الناضج ، فهو يتناول المشكلات باسلوب تهكمي ساخر ، وانتقادات مرة لاذعة فلنستمع اليه في مقال بعنوان « عربي

(١٣ ، ١٤) د. ماهر حسن فهمي « الأدب والحياة في المجتمع المصري المعاصر » ص ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ .

تفرنج » جاء فيه : « ولد لاحد الفلاحين ولد فسماه « زعيط » وتركه يلعب بالتراب وينام في الوحل حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة ، فسرحه مع البهائم ، يسوق الماشية ويجول في الماء ... وبينما هو يسوق الماشية وابوه جالس عنده مر بهما احد التجار ، فقال لابيه لو ارسلت ابنك الى المدرسة لتعلم وصار انسانا . فاخذه وسلمه الى المدرسة ، فلما اتم العلوم الابتدائية ارسلته الحكومة الى اوربا وبعد اربع سنوات ركب الوابور وجاء عائدا الى بلاده فمن فرح ابيه حضر الى الاسكندرية ووقف برصيف الكمرك ينتظره فلما خرج من السفينة قرب ابوه من السفينة ليحتضنه ويقبله شأن الوالد المحب لولده ، فدفعه في صدره[١٥] . وقد اخذ النديم في نهاية مقالته يسخر من هذا الفتى المتفرنج الذي نسي كل القيم والاعتبارات ظانا ان التفرنج هو تجاهل كل العادات أو نسيانها ، تلك التي الفها في مجتمعه . هذا اللون من الوان المقالة اتخذ الحوار اساسا للتعبير . ومما هو جدير بالملاحظة ان النديم عرف قيمة السخرية اللاذعة في التوجيه ، متخذا من العامية اسلوبا له لتقريب معنى المقالة الى الناس . وقد فعل فعله زميله في العراق ابراهيم صالح شكر تماما في كل مقالاته ولكن باسلوب عربي مبين .

هذه البدايات تعد مرحلة من مراحل تطور فن المقالة في صحافتنا المعاصرة وادبنا المعاصر . وفي هذا الباب لابد لنا من ان نتذكر احمد فارس الشدياق اللبناني الذي اشاد دولة ادبية وبنى نهضة حديثة وقد اعترفت الدول العربية بفضله وادبه وبخاصة مصر اذ وضعت جائزة سنوية لمن يؤلف كتابا موضوعه «احمد فارس الشدياق واثره في اللغة والادب » ان ادبنا ، كما هو معروف ، ككل آداب الامم المتحضرة المعاصرة نشأ اولا صحفيا . والشدياق هو اول من كتب المقالة لجوائبه فهي الجريدة العربية السياسية الادبية الاولى ، وكان اول من وضع الاصطلاحات واول من نادى بتحرير

---

(١٥) المصدر السابق ص ٢٥ .

المرأة وهو أول نصير لها قبل ان يهب قاسم أمين[١٦] كان الرجل من عشاق الحرية التي طالب بها للعبيد في زمن الرق والاستعباد ولك ان ترجع الى الصفحة الخامسة والثمانين من الجزء الاول من مختارات الجوائب لتجده اول قائل في مقدمة « فرياقة » انه بناه على اساسين : المرأة واللغة • يقول الدكتور شبلي شميل في مقالة له منشورة في المختارات « ان مثل هذه الفصول هي التي وجهت كتاب النهضة فيجب ان يذكر صاحبها مع الجاحظ[١٧] » كان كتابنا بالامس يعيشون غمار فترة من التغيير والاصلاح في مختلف مناحي الحياة معبرين بمقالاتهم وخطبهم عن حقيقة وجودهم وانفعالاتهم في عالم تنكر لقيم الحق ومبادىء العدالة فالاديب والصحافي في انتاجيهما مهما اختلفت اشكالها وتباينت اهدافها وتفاوتت بيآتها كانا يهدفان الى طلب الحرية والانعتاق • وهذه العملية الادبية انما هي عملية فنية خلاقة كانت في حد ذاتها نوعا من الانطلاق سجل انسانية الادب والصحافة الادبية بكل مافيها من معاناة وشقاء وتجارب شعورية موحية ، هذه التجارب الرائعة الخالدة فاحت منها رائحة الانسانية في عذابها وافراحها لان وظيفة الادب ان يمنح ويوجه في وقت واحد ولا خير في ادب لا هدف منه ولا انسانية تحتضنه ، ولا تجربة رائدة تحدوه • لقد خاض ادبنا المعاصر غمار الاحداث فمرة تراه يثأر للحق والعدالة في قصيدة حماسية وطنية تعبر عن موقف تحرري او قصة واقعة تسلط الضوء على مشكلة من مشكلات الحياة الساسية والاجتماعية ومرة اخرى تراه ينزع نحو الفردية في مثالية المعقول واللامعقول حيث يبدو ادبنا مأساويا وكأنه لم يوار في هذه التربة التي عذبها الحرمان وقست عليها الايام واحاطت بها الهموم والاحزان وتكالبت عليها المؤامرات لتخنق فيها صوت العدالة الانسانية وليخرج ارثها الحضاري الذي ضحت من اجله بكل غال ونفيس عبر قرون طويلة من النضال والكفاح المريرين • لقد

---

(١٦) راجع « جورجي زيدان » مشاهير القرن التاسع عشر « ج ١ بيروت ص ٣١٢ ، ١٩٥٢ .

(١٧) راجع « مارون عبود ، رواد النهضة الحديثة » ص ١٥٦ ـ ١٦٠ .

عبر ادباؤنا وصحافيونا بالامس عن هذا كله بوسائل تعبيرية مختلفة منها المقال والقصة والمسرحية والشعر فكانوا قلب الامة النابض ولسانها الناطق معبرين بادب له قوالب جديدة وابداعات جديدة وبانماط مستساغة مقبولة اعانت على نهضتنا وايقظتنا من سباتنا فصحونا على عالمنا العربي يعيش حياته المتحررة وكرامته الانسانية فخاض العربي غمار هذه التغيرات الثورية التي خلقها انساننا العربي المعاصر معبرا عن اصالته وروحه العربية المتحررة باسلوب بسيط سهل انيق رفيع ولعل صحف العشرينات اوفر الصحف دلالة على الخطوات الاولى لهذا الاسلوب وارتقائه شيئا فشيئا حتى بلغ ذروته مستمرا حتى يومنا هذا . وهكذا كان للصحافة اثرها البعيد في تطوير الاسلوب الانشائي مسايرة لتطور الحياة في مختلف حاجاتها ومتنوع مرافقها. ولمحة سريعة على انشاء الصحافة واسلوبها من اول عهدها الى اليوم كفيلة باظهار الفروق بين صحافة الامس واليوم وايضاح البعد بين العهدين «فان نهضتنا الحضارية في اوائل القرن العشرين الى يومنا هذا صحبتها بالضرورة نهضة في مجال اللغة لان من اللغة تبدأ ثورة التجديد وذلك امر محتوم في دورات التطور لامفر منه وان نهضة اللغة قد اخذت مجريين مختلفين اما احدهما فطريق سلكه طائفة من كتاب الصحافة الناهضين اردوا بالغة ان يوفقوا العامية في وسيلة ادائها ، واما الطريق الاخر فهو الذي سلكه فريق ظن ان النهوض باللغة انما يكون باحياء القديم وقد ناهضه كتاب الصحافة فلم يكتب له النجاح في الكتابة النثرية المعاصرة . وعندي ان الامل المنشود هو ان تتطور اللغة بحيث تحقق شرطين : ان تحافظ على عبقريتها الادبية اولا ، وان تكون اداة التوصيل لا مجرد وسيلة لترنم المترنمين ثانيا ويغير هذه الثورة في استخدامنا اللغة فلا رجاء في ان تحقق لنا الوسيلة الاولية التي تدخل بها مع سائر الناس عصر التفكير العلمي الذي يحل المشكلات[١٨]. الواقع ان ظهور طائفة من كتاب الصحافة من ذوي الثقافات العالية ادى الى ابتعاد الاسلوب شيئا فشيئا عن اسلوب الانشاء العربي المتوارث اذ استقلت

---

(١٨) د . زكي نجيب محمود «تجديد الفكر العربي» ص ٢٢٣ بيروت ١٩٧٧ .

الصحافة بفن خاص عن الادب كما استقل الصحافيون عن جمهور الكتاب استقلالهم عن اساتذة اللغة فكانت لنا طبقة خاصة جديدة من المشتغلين بالقلم والكتابة والنقد السياسي والاجتماعي توازي ، ان لم اقل تفـــوق ، كتاب العرب في مستواهم الكتابي . ونظرة خاطفة نقابل بها الاسلوب الصحافي الذي ادرك ذروته قبل الحرب العالمية الثانية ، والاسلوب الصحافي الســائد اليوم تظهر الدليل القاطع على تقدمنا وهذا يعود اولا واخيرا الى كتابنــا الذين عملوا بجهد وادوا دورا جليلا في تطوير اللغة وجعلها ملائمة لتطور البيئة وانواع البحث[١٩] . ولك ان تقرأ كتابات الكتا بالصحافيين من امثال ابراهيم صالح شكر وابراهيم حلمي العمر وفهمي المدرس ، والشبيبيين باقر ومحمد رضا لتجد دقة وبلاغة وحسن عبارة وجودة اسلوب ولطافة نكتــة وبعد اشارة ولطف مأخذ وصواب استشهاد ، وهي نماذج رائعة في جودة التعبير ودلالة المقصد . لقد كان كل كاتب من هؤلاء يتميز باسلوبه الخاص تكاد تعرف كتاباته حتى ولو نشرت من غير توقيع .

ومما يؤثر عن «يوفون» الناقد الفرنسي قوله : «ان الاسلوب هــو الرجل » والمقصود بذلك ان خصوصية الاديب والحدود الفاصـــلة بــين شخصية ، وشخصية سواه انما تتجسد في كتاباته وتذوب في كل جزء منها كما تذوب قطعة السكر في الماء وتتغلغل في كل قطرة منه . والايمان بهذا القول ايمان باصالة الادب واصالة الاديب من ناحية ، ودعوة الى اخلاقية وسلوكية نزيهة لا تستلب ولا تقلد ولا تدعي ما ليس لها . وقد تمثلت هذه المقولة فيما كتبه ادباء الجيل الماضي وشعراؤه ... فاسلوب طه حسين يتميز عن اسلوب العقاد واسلوب الزيات او اسلوب زكي مبارك او اسلوب فهمي المـــدرس او محمد رضا الشبيبي ، وقصيدة الرصافي غير قصيدة الزهاوي وغير قصيدة باقر الشبيبي وغير قصيدة الصافي النجفي . وكانت الكتابات تنســب

---

(١٩) لتفصيل هذا راجع « مجلة الطباعة اللبنانية » العدد الثالث ص ٥٠ عام ١٩٧٣

لاصحابها والقصائد يعرف ناظمها وان نشرت غفلا من اسم قائلها لان روافد الثقافة كانت متنوعة فكان انتاجهم وعطاؤهم مختلفا[٢٠] . الواقع ان المقالة الادبية والصحافية قامت على اكتاف الادباء الذين تثقفوا ثقافات خاصة ونهضتنا اليوم مدينة لاولئك الرواد الذين عبدوا الطريق لجيلنا المعاصر وهيأوا لنا نهضة في مختلف فنون الادب فكان لكل كاتب من هؤلاء موهبة خاصة في فن من هذه الفنون . ففيهم اللغوي البارع وكاتب المقال الممتاز والقصصي اللامع والناقد النزيه .

ان هذه الفنون المختلفة كانت ولادة حديثة ، فنظرة في مختلف مناحي حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية نجد طفرات موضوعية وفنية رائدة ، ونحن متفائلون بان النواحي الثقافية ستكون اكثر اشراقا بفعل التوجيه الثوري الذي نشهده . لقد كانت أكثر المقالات ، ان لم أقل جميعها ، جزءا من طموحاتنا تجاوزت همنا القطري لتنطلق واثقة الى المجال القومي الارحب فمقالات الزهاوي والرصافي والشبيبي باقر ومحمد رضا كانت تنشر في المجلات المصرية والسورية والعراقية على نطاق واسع حققت امانينا في مجالات الفكر والادب والسياسة والاجتماع لايمان الكتاب بأن من لا اصل له لا فرع له ومن لا يفهم نفسه وتأريخه لا يفهم الاخرين ولا يفهمه الاخرون .

لقد اهتم الكتاب بتراث امتهم ومزجوا بين التراث والمعاصرة فكان انتاجهم الحي[٢١] . كما ظهرت في افقنا العربي اليوم معالم التغييرات الثورية كان روادها كتاب المقالة الادبية والسياسية والصحافية .

---

(٢٠) جريدة الجمهورية «مغزى الاسلوب في العمل الادبي» لعبدالجبار داود البصري في ٢٦-٨-١٩٧٥ .

(٢١) للافادة راجع جريدة الجمهورية العراقية مقال بعنوان « آفاق عربية وصعوبة التبديل » بقلم منذر الجبوري في ٢٢-٩-١٩٧٥ .

كانت الصحافة وما زالت الركن الاساس في كل تقدم ثقافي وسياسي واجتماعي. اما اليوم فقد حققت الصحافة العراقية تقدما كبيرا في ظل القيادة السياسية الواعية حيث اولت الصحافة الامور السياسية التي تدفع الجماهير الى التقدم والرفاه والتحرر مستخدممة كل الوسائل للذود عن مصالح الشعب وحمايته من القوى المضادة ، وهنا لابد من القول ان الادب قبل ظهور الصحافة كان مقصورا على قلة من الناس تغرم بالاشكال والزخارف ، وغريب اللفظ المثقل بالتقليد الراكد في معناه ومبناه ، ولما كانت تلك الالفاظ والاشكال لا تتفق وطبيعة العصر الحديث ومبتكراته نزع الكتاب قيود التقليد ومالوا الى التجديد ، لان قسما من تراثنا اللغوي والاسلوبي مهما بذلنامن جهود في تمحيصة لايمكن ان ينهض بكل تبعات الحاضر والمستقبل، ولم يعد الادب ولم تعد الصحافة وقفا على طبقة دون اخرى، فالتطورات الهائلة التي صاحبت النهضة في ميادين العلم والفنون والسياسة والاجتماع وما اليها استوجبت ادبا جديدا ولغة جديدة تتسع لكل هذه التطورات . وقد تحملت الصحافة عبء هذا العمل نظرا لشيوعها وانتشارها وسرعة تأثرنا بها[٢٢] .

وللبحث صلة .

---

(٢٢) د . عناد الكبيسي « الادب في صحافة العراق » ص ١٤٣ .